

انعكاسات النفعية والتسليع على البحث العلمي

دراسة تقييمية من منظور التربية الإسلامية

The implications of utilitarianism and commodification on educational research: an evaluation study from an Islamic perspective

<https://aif-doi.org/AJHSS/096007>

إعداد الدكتور

عبد الرحمن بن محمد بن نفيز الحارثي*

*أستاذ أصول التربية الإسلامية المساعد

كلية التربية بجامعة الملك خالد بأبها

a.alharthi@kku.edu.sa

انعكاسات النفعية والتسليع على البحث التربوي

دراسة تقييمية من منظور إسلامي

ملخص الدراسة:

انعكاسات النفعية على البحث العلمي إضعاف الإبداع عند العقل الإسلامي، وانعزاله عن سياقه الاجتماعي أثناء النظر للمشكلات التي يتناولها في البحث العلمي، ومن انعكاسات فكرة التسليع على البحث العلمي أن الإنسان يتحول إلى "شيء" فلا تتجاوز نظرته في العلوم السطح المادي وعالم الأشياء، وذلك لأنه يسير وفق نماذج محددة بسيطة، كما لو أنه يتعامل مع المادة ذاتها.

الكلمات المفتاحية: فلسفة النفعية، التسليع

التربوي، البحث العلمي، التربية الإسلامية.

هدفت الدراسة إلى: توضيح انعكاسات النفعية على البحث العلمي، وبيان منظور التربية الإسلامية للنفعية في البحث العلمي، وتوضيح انعكاسات التسليع على البحث العلمي، وبيان منظور التربية الإسلامية للتسليع في البحث العلمي، وأوضحت النتائج أن النفعيين يتفقون على أن المنفعة هي غاية الخير والأخلاق، فالصدق أو نفي الكذب ليست هي الغاية؛ بل الغاية ما يترتب عليها من نتائج والتي هي في نهاية الأمر منفعة مادية محسوسة، وأن المنفعة في الإسلام قد تكون دنيوية مادية، وقد تكون أخروية، وقد تجمع بين الأمرين بمنهجية قانونية متوازنة تراعى فيها المصلحة العامة والمصلحة الخاصة، وأن من

Abstract:

This study aimed to: Clarify the implications of utilitarianism on educational research, clarify the Islamic perspective on utilitarianism in educational research, clarify the implications of commodification on educational research, and clarify the Islamic perspective on commodification in educational research. The results showed that utilitarians agree that utility is the end of morals. Truth or denial of lies is not the end; Rather, the end is what results from it, which is ultimately a tangible material benefit, and that the benefit in Islam may be materialistic, and it may be hereafter, and it may combine the two things with a balanced legal methodology that takes into account the public and the private

interests, and that one of the repercussions of utilitarianism on educational research is weakening creativity in the Islamic mind, and its isolation from its social context while looking at the problems it deals with in educational research, and one of the repercussions of the idea of commodification on educational research is that man turns into a "thing" so his view of science does not go beyond the material surface and the world of things, because it follows simple specific models, as if dealing with the same substance.

Keywords: utilitarian philosophy, educational commodification, educational research, Islamic education.

مدخل لمشكلة الدراسة:

يسهم البحث التربوي في بناء القيم، أو يعزز أفكاراً وأساليب تربوية، وقد يرسم تصورات وتوجهات واضحة المعالم، كما أنه يساهم في علاج المشكلات التربوية في الحياة العامة أو مراحل التعليم المختلفة.

إن البحث التربوي هو المحاولة التي تحمل منهجية علمية ولها أساليب متعارف عليها بقصد الوصول إلى نتائج يرمي الباحث إلى تحقيقها أو بيانها؛ أو تحديد العلاقة بين ظاهرتين أو عدة ظواهر لكي يتمكن القارئ من التنبؤ بحدوث ظواهر أخرى، أو بتوضيحها لتكن مفهومة ومعقولة (بحوث، 2015). لذا يعرف بعض الباحثين البحث التربوي بأنه: "الدراسات التي تعالج المواضيع التربوية ويقوم بها باحث أو عدد من الباحثين وتتبع طريقة علمية في جمع البيانات وتحليلها، وعرض النتائج والتوصيات". (كتلو وآخرون، 2019)، ويعرفه (نصار، 2015) بأنه السعي العلمي المنظم لفهم الظاهرة التربوية موضع الدراسة واستجلاء العلاقات المتداخلة وتفسيرها، بهدف إثراء المعرفة التربوية، وتحديد السياسة التعليمية وصياغتها، وإيجاد حلول علمية للمشكلات التي تواجه الممارسات التربوية وصولاً إلى التطوير التربوي المنشود.

ومن خلال هذه التعاريف يتضح أن البحث التربوي ينبع من هم داخلي عند الباحث أو مشكلة يعيشها الباحث بنفسه ويدرك تفاصيلها، ثم يقوم بترجمة هذه الإشكالية إلى واقع يحدد أطره بمنهجية علمية، وهي عملية أشبه ما تكون بطلب صاحب الفكرة التجارية دراسة جدوى تُقدم له حول مشروعه الذي ينوي الدخول فيه بماله؛ فنجد أنه يتحرى أي المختصين يختار ليقدم له هذه الخدمة، حتى تكون الدراسة مبنية على أسس علمية يتحقق من خلالها الأمن النفسي في أنه سيضع ماله في المشروع المناسب وتكون نسبة الاطمئنان لديه كبيرة، ولكن السؤال هل كل من يقوم بدراسة الجدوى يدرك تفاصيل المشروع وبيئته وزمنه وأنظمة وقوانين البلد الذي سيتحقق فيه المشروع أو لا؟ ثم هل هو يستطيع أن يستشرف المستقبل بصورة منهجية علمية حتى تكون دراسة الجدوى واضحة المعالم قريبة من الواقع بشكل كبير؟

إذا كان الهدف من هذا أن يجد المختص في دراسة الجدوى منفعته فيما قام به؛ فإن البحث التربوي اليوم أصبحت تحركه المنفعة انطلاقاً من الفلسفة البراجماتية كأحد أهم ركائزها، حتى أن (السورطي، 2004) يرى أنه بات سلعة تجهز على عجل لغرض الكسب السريع، والمصلحة الآنية والمنفعة الفردية، لذا ينظر بعض الباحثين إلى أن البحث التربوي سلعة تؤدي بهم إلى الوصول لتحقيق هدف الحصول على درجة علمية، أو ترقية أكاديمية، أو إضافة في السيرة الذاتية للحصول على وظيفة أكثر رقياً، بغض النظر عن مدى التشعب بفكرة البحث، أو انطلاق الباحث في بحثه من هم معين أو مشكلة محددة يقدم به حلاً في الوسط التربوي، أو إثراءً للممارسات التربوية.

وحيث النظر لفكرة تسليع البحث التربوي ومن أين جاءت هذه الفكرة، ولماذا أصبحت هي النمط السائد عند معظم الباحثين التربويين يجد الباحث أن هناك تأثيراً أو تأثيراً بالفلسفة البراجماتية؛ خاصة فيما يتعلق بفكرة النفعية والتي تصب في تفريد المنفعة أو جعلها للفرد؛ أكثر من كونها ستحقق تقدماً للمجتمع بشكل عام، حتى وإن كان الأصل فيها تحقيق هدف معين يساهم في تحقيق أهداف التربية بشكل كبير؛ إلا أن الممارسات التربوية من قبل الباحثين أصبحت تقدم تحقيق المنفعة المادية على غيرها، بل إن الأنظمة واللوائح التي تقرها بعض مؤسسات التعليم العالي في متطلبات البحث العلمي ساهمت في ذلك؛ شعر القائمين عليها بذلك أو لم يشعروا. وإن ذلك ليس في مستوى البحث العلمي التربوي وحسب؛ بل يتعداه إلى العملية التعليمية التربوية في بعض أجزاءها.

لذا؛ أكدت بعض الدراسات على أن غالب التأثير التربوي الغربي على التربية في الوطن العربي جاء بسبب فلسفات الغرب التربوية كالفلسفة البراجماتية، لكن تأثيرها كفلسفة غربية مهمة ومشهورة على التربية العربية ما زال غير واضح تماماً من حيث مظاهره، ومصادره، ونتائج (السورطي، 2008). ولذلك تأتي هذه الدراسة لتقصي ذلك.

ولأن البراجماتية تقوي النزعة الفردية، انطلاقاً من فلسفتها النفعية، وتقوم بترويج المصالح الفردية، بل تبيح كل شيء يسهم في وصول الفرد إلى هدفه - ملتزماً بقوانين بلده لا أكثر- دون أن يكون هناك أي اعتبارات لمشروعية تحقيق ذلك الهدف وفقاً لما تمليه عليه قيمه ومعتقداته، ولئن كان ذلك على عموم التربية العربية فهل ينطبق على كل أجزائها بما في ذلك منهجية البحث العلمي التربوي؟ لقد توصل السورطي (2008) إلى بيان مظاهر تأثير البراجماتية على التربية العربية، وذكر مصادر تأثير البراجماتية، وبين نتائج ذلك التأثير على التربية العربية، وذكر في نتائج الدراسة النتائج السلبية للبراجماتية على التربية العربية، ومنها إضعاف النظام التربوي العربي، وتهميش دور الدين في العملية التربوية، وشيوع مبدأ النفعية، ووجود فصام بين المجتمع والفلسفة التربوية.

وقدم المطرفي (1433هـ) دراسة بعنوان: "الفردية في الفلسفة البراجماتية دراسة تحليلية ناقدة من وجهة نظر التربية الإسلامية" والتي هدفت إلى إبراز معالم الفردية في البراجماتية وتوضيحها من جانب نظري وتطبيقي، وكان من نتائجها: أن الفلسفة البراجماتية قامت على النزعة الفردية، وتتنظر إلى المنفعة باعتبارها المعيار الذي تحاكم إليه المعارف والقيم، وأنها تتنظر إلى الإنسان نظرة مادية بيولوجية مما كان له انعكاساً على فكرها التربوي.

وفي دراسة حمداوي (2020) "الأخلاق في الفلسفة البراغماتية وليام جيمس أنموذجاً" والتي هدفت إلى إبراز قيمة الفلسفة البراجماتية وغناها المعرفي والفكري، وكان من أبرز نتائجها: أن الإنسان يسعى لبلوغ غاياته الذاتية ويعمل لنيل ما ينتفع به هو، وأن الأخلاق التي تفرضها الأعراف زائفة وخائفة لحرية وإرادة الفرد لذا يجب التخلي عنها، وأن صدق الأفكار مرهون بما تحققه من نتائج نافعة وعملية، والاختيار بين الأفكار يكون وفق نسبة تطابقها مع الجانب العملي والواقعي وقيمتها تتحدد بالنفع الذي تجلبه.

وباستقراء أدبيات البحث التربوي ذات الارتباط بموضوع الدراسة، اتضح أيضاً تأكيداً على أن الفلسفة البراجماتية وصف لكل من يهدف إلى النجاح، أو إلى منفعة خاصة، وتتخذ من العمل والنفعية معياراً لها؛ ففي دراسة الزعبي والشرابي (2019) والتي هدفت إلى الكشف عن النظرية التربوية البراجماتية من وجهة نظر إسلامية، وبيان مفهومها، وأشهر روادها، كان من نتائجها: ترى البراجماتية أن القيم وسيلة لغاية، أما في الإسلام فتتسم بالثبات والأصالة: لأن مصدرها الكتاب والسنة، وترى أن الأهداف الحقيقية هي التي يحددها الفرد بنفسه، أو يشترك في تحديدها في ضوء خبراته السابقة وحاجاته، في حين أن الأهداف في الإسلام تكمن في التربية الخلقية، والعناية بالدين والدنيا معاً، والتعليم المهني والفني والصناعي لكسب الرزق.

ولعل من المناسب أن يورد الباحث دراسة بحوث (2015) بعنوان: خطر التسليع التربوي أو تبضيع التعليم على التخطيط الاستراتيجي لإصلاح المنظومة التربوية المغربية في أفق 2030، والتي هدفت إلى بيان مفهوم التسليع أو التبضيع التربوي ومظاهره وتجلياته والدوافع التي تسهم في هذه الظاهرة

الاجتماعية التربوية الجديدة، وكان من أبرز نتائج الدراسة: أن هناك دوافع سياسية وأخرى فلسفية واجتماعية واقتصادية ساهمت في عملية التسليع التربوي.

ووفق تلك الرؤية أوردت زياد (2017) في دراسة لها بعنوان: الأخلاق البراغماتية جون ديوي أنموذجاً، حيث كان من أهدافها: بيان موقف جون ديوي من التربية أهم الاعتراضات عليها، وتوصلت إلى عدة نتائج من أهمها: ربط نجاح الأخلاق عند ديوي بما تحققه من قيمة إيجابية وتطابق اجتماعي، وتؤكد البرغماتية نسبية القيم وتغيرها على عكس ما كانت عليه الأخلاق الكلاسيكية من ثبات وموثوقية.

وعلى الرغم من تركيز هذه الدراسات السابقة على نقطتين أساسيتين:

الأولى: تأثير الفلسفة البراجماتية - وفق مبدأ النفعية- على العملية التربوية في معظم أجزائها.

والثانية: أن بعض أنماط الحياة المادية ساهمت في تسليع البحث التربوي؛ حتى أصبحت بعض الأنظمة التعليمية تساهم في ذلك وفق سنها لبعض اللوائح المنظمة للبحث العلمي - وإن كان القصد منها تحقيق رفع مستوى الباحثين ورفع مستواهم في سبيل التواصل مع البحث العلمي، وإثراء العملية التربوية بالأبحاث التي تساهم في تطوير الممارسات التربوية بشكل عام وغيرها من الأهداف التي تخدم العملية التربوية- إلا أن الواقع عند بعض الباحثين أنهم بحثوا عن المنفعة الفردية التي يغلب عليها الجانب المادي، بدلاً من تطوير وبناء وحل مشكلات العملية التربوية، وباتت أبحاثهم حبيسة الأرفف، لا تستفيد منها العملية التربوية بعد الانتهاء منها بشيء.

أسئلة الدراسة:

يمكن تحديد مشكلة الدراسة في الأسئلة الآتية:

1. ما تقييم انعكاسات النفعية على البحث التربوي من منظور التربية الإسلامية؟
2. ما تقييم انعكاسات التسليع على البحث التربوي من منظور التربية الإسلامية؟

أهداف الدراسة:

تتبلور أهداف البحث في:

1. توضيح انعكاسات النفعية على البحث التربوي.
2. تقييم انعكاسات النفعية على البحث التربوي من منظور التربية الإسلامية.
3. بيان انعكاسات التسليع على البحث التربوي.
4. تقييم انعكاسات التسليع على البحث التربوي من منظور التربية الإسلامية.

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية الدراسة في:

- إن الناظر لواقع المسلمين اليوم يجد أن الكثير تأثر بالفكر البراجماتي النفعي، وغاب عنه الكثير من القيم والأخلاق والمبادئ الإسلامية التي توضح دوره كإنسان كرمه الله وجعله خليفة في الأرض، وتأتي هذه الدراسة للتأكيد على أن الأصل في البحث العلمي هو التمسك بهذه القيم والأخلاق الإسلامية.
- إن معرفة معالم البراجماتية على البحث العلمي يساهم في تقليص الهوة بين ما تنتجه الجامعات كمؤسسات بحثية، وما تحتاجه المؤسسات التنفيذية في الدولة، ويحول أهداف البحث العلمي من تحقيق منفعة فردية للباحث فقط إلى منفعة عامة.
- إن ربط الترفيات من مرتبة إلى أعلى كان في جعل جزء كبير من النقاط التي توهم للترقية على البحث العلمي، وإن ذلك عزز مبدأ النفعية عند بعض أعضاء هيئة التدريس، وتأتي هذه الدراسة لتوضيح أثر الفلسفة البراجماتية على البحث العلمي؛ لمحاولة تدارك الخلل في تغيير مبدأ النفعية بمعناه البراجماتي.
- أصبحت معظم الأبحاث التربوية تركز على الأبحاث قصيرة المدى بغية الانتهاء منها سريعاً لإدراك الترقية، مما أثر على جودة البحث العلمي من ناحية، والابتعاد عن الأبحاث طويلة المدى على ما لها من أهمية من ناحية أخرى، ويأتي هذا البحث للتركيز على أحد الأسباب الداعية لذلك.

مصطلحات الدراسة:

• النفعية:

إذا نظرنا إلى معنى المنفعة في اللغة، فالمنفعة اسم من النفع، والنفع هو: "الخير وما يتوصل به الإنسان إلى مطلوبه" (مصطفى إبراهيم وآخرون، 1425).

في الاصطلاح: "كل مذهب يجعل من النافع أساساً كلّ القيم في مجال المعرفة، وكذلك في مجال العمل. فيدل اسم «نفعية» على النسق الذي يكمن في إرجاع معنى الصحيح العادل إلى معنى النافع، وتالياً: في جعل المنفعة أساساً للحق والأخلاق" (لا لاند، 2001).

وفي معجم صليبيا (1982) "والنفعي من الرجال من يؤثر المنفعة على كل شيء، والنفعي من الأشياء ما يترتب عليه النفع ويرادفه النافع. وقد يطلق النفعي زرية على الرجل الذي لا يفكر في المثل العليا، ولا يميل إلا إلى الأرباح المادية". (ج2، ص499).

ويعرفها الباحث إجرائياً بأنها: النتيجة المترتبة على كل عمل يقود الإنسان إلى تحقيق فائدة مادية

وتحقق له نوعاً من الشعور بالوصول للهدف المحسوس.

• التسليع:

هو "مصطلح يشير إلى أن السلعة وعملية تبادل السلع هي النموذج الكامن في رؤية الإنسان للكون ولذاته ولعلاقاته مع الآخر والمجتمع"، (المسيري، 2012).
وذكر السورطي (2008) أن التسليع "عملية تؤدي إلى تشيئ التربية بعد تشيئ الإنسان نفسه، حيث إنه يحول التربية إلى بضاعة استهلاكية تباع وتشترى وتخضع لقانون العرض والطلب، ويستطيع البعض الحصول عليها بينما يعجز البعض الآخر عن ذلك".
والتسليع التربوي هو "عملية تؤدي إلى تشيئ التربية بعد تشيئ الإنسان ومن أهم مظاهره اختزال دور المؤسسة التربوية في عملية التعليم على المعارف الخاصة بالإعداد لسوق العمل لا غير". (الشريف، 2018).
ويعرف الباحث تسليع البحث إجرائياً بأنها: بأنه تحويل البحث التربوي من منهجية بنائية أو تطويرية أو مساهمة في حل المشكلات التربوية والمجتمعية، إلى جعله شيء يحقق الإنسان من خلاله مصلحة مادية خاصة به.

• البحث التربوي:

يعرف أبو صبحة (2015) البحث التربوي بأنه: "نشاط علمي هادف، منظم، يهدف إلى حل المشكلات التربوية والاقتصادية والاجتماعية التي تلمس حاجات المجتمع".
ويعرفه الباحث البحث التربوي إجرائياً بأنه: نشاط ذو منهجية علمية، بغرض حل مشكلة، أو تعزيز فكرة أو قيمة أو مبدأ، أو وصف ظاهرة معينة فيما يحقق تطوير ونمو الممارسات التربوي.

• التربية الإسلامية:

عرفها البستنجي (2020، 5) أنها: "نظام تربوي شامل يهتم بإعداد الإنسان الصالح إعداداً متكاملاً دينياً ودينياً في ضوء مصادر الشريعة الإسلامية الرئيسية".
وقال الفراجي (2021، 5) أنها: "مجموعة من الحقائق والقوانين والمفاهيم والاتجاهات والقيم التي تشتق من القرآن الكريم والسنة النبوية التي يكتسبها الطلاب من خلال دراستهم لمنهج التربية الإسلامية والتي تؤدي على تكوين نظرة متكاملة لديهم نحو الكون والإنسان والحياة".
ويعرفها الباحث إجرائياً بأنها: بأنها التصورات والمفاهيم والحقائق والمبادئ والقيم التي يتم غرسها في الإنسان وتكون مشتقة من المصادر الإسلامية للمعرفة، بغرض بناءه بصورة متوازنة؛ ليحقق هدف الاستخلاف في الأرض.

حدود الدراسة:

اقتصرت هذه الدراسة على توضيح مبدأ النفعية ومدى تأثيرها على البحث التربوي، وبيان فكرة التسلية وأثرها على البحث التربوي، كجزء من أجزاء العملية التربوية.

منهج الدراسة:

استخدم الباحث المنهجي الوصفي التحليلي، وهو كما عرفه عدس (2003، 247)، بأنه: "المنهج الذي يعتمد على دراسة الواقع أو الظاهرة كما توجد في الواقع، ويهتم بوصفها وصفاً دقيقاً، ويعبر عنها تعبيراً كيفياً أو تعبيراً كمياً". ويعرفه عبيدات وآخرون (2001، 186)، بأنه: "أسلوب يعتمد على جمع معلومات وبيانات عن ظاهرة ما، أو حدث ما، أو واقعة ما، وذلك بقصد التعرف على الظاهرة المدروسة، وتحديد الوضع الحالي لها، والتعرف على جوانب القوة والضعف فيها، من أجل معرفة مدى صلاحية هذا الوضع، أو مدى الحاجة لإحداث تغييرات جزئية أو أساسية فيه".

ويعرف الباحث إجرائياً بأنه: منهجية علمية تحليلية نقدية لدراسة تأثير النفعية والتسلية على منهجية البحث التربوي، ووصفها وصفاً دقيقاً بصورة كيفية.

الإطار النظري للدراسة:

لتحقيق أهداف الدراسة والمتمثلة في: توضيح معنى النفعية والتسلية - كأبرز معالم البراجماتية -، وتحليل انعكاساتها على البحث التربوي، وتقييم تلك الانعكاسات من منظور إسلامي، فإن الدراسة تسيروك العناصر الستة التالية:

(1) النفعية البراجماتية:

لقد تأثرت الفلسفة البراجماتية بالفلسفة النفعية وهي مدرسة إنجليزية وامتداد للفلسفة التجريبية، أو بالأصح هي تطبيق الفلسفة التجريبية على علم الأخلاق ولذلك نجد أن النفعيين ناولوا "الأخلاق من خلال المنهج التجريبي فاعتبروهما علماً وضعياً وليس معيارياً" (عبدالحفيظ، 2006، 55)، والمنفعة مذهب "يقوم على الأفعال بمقدار ما تنتج من منافع" (الحنفي، 2000، 783)، وحينما نتأمل في عوامل ظهور مذهب المنفعة نجد أن ذلك كان في إنجلترا وهي عاملين:

الأول: نظريات آدم سميث في تقسيم العمل، الذي سبقه ظهور التصنيع، حيث اهتم نوعاً ما بفكرة المنفعة.

والثاني: النظرية الأخلاقية، وهي ترجع إلى هتشنسون ومفادها أن الخير هو اللذة والشر هو الألم، وأفضل حالاتها هي التي تتفوق فيها اللذة على أعلى درجات الألم. (الطرطوط، 2011، 36).

وإذا نظرنا إلى رأي تشارلز بيرس، والذي يعتبر الأب الروحي للبراجماتية، فإنه يرى أن تعريف الشيء وتحديدده ليس كافياً لأن تكون الأفكار واضحة؛ بل يجب أن ترتبط الأفكار بالأعمال؛ إذ أن وظيفة الفكر هي إنتاج طرائق العمل، وهو بهذا يؤكد أن القاعدة للحصول على أقصى درجة من الوضوح هي الأخذ بالنتائج العملية التي ندرك أن تفكيرنا له علاقة بها، حينها يكون إدراك النتائج هو كل مفهومنا عن الموضوع، لذلك فإن النظر إلى الأعمال أو النتائج الحاصلة عن الأفكار يجعلها واضحة، وهو يركز هنا على أن البراجماتية أسلوب في التفكير. (وسب، 1963، 317).

ثم جاء وليم جيمس وجعل "كلمة الحق وكلمة النفع مترادفتين، فنقول عن فكرة إنها نافعة لأنها حق؛ أو إنها حق لأنها نافعة" (محمود، 2020، 106). وبهذا أدخل المنفعة في الفلسفة البراجماتية وجعلها أحد مرتكزاتها، وبهذا يمكننا أن نبين أوجه الشبه بين الفلسفة النفعية والفلسفة البراجماتية في النقاط التالية:

1. كلا الفلسفتين تعتمد على التجربة، فالنفعية تقول: للوصول إلى المنفعة لا بد من التجارب والاختبارات للوصول إلى أقصى منفعة، والبراجماتية تقول: لا بد للوصول للنتائج بالقيام بالتجارب والاختبارات.

2. النتائج هي معيار الفشل والنجاح عند البراجماتيين (وهي كل شيء) عند النفعيين.

3. محور تفكير النفعي سعادة البشرية وسبيل الوصول إليها، والمحاولة إلى الابتعاد عن نصب ومتاعب الحياة، مع أنه ينغمس فيها انغماساً، وكذلك عند البراجماتية والتي تهدف إلى التقدم في الحياة وتطويرها، فالغاية هي سعادة الإنسان، وإذا كان من فكرة تساعدنا في هذه الحياة فهي حق لأن نعتقدها.

4. النفعي عملي وواقعي، يقوم بتقييم الأفكار وفق قيمتها العلمية، ويقدر مقدرتها على تحقيق رغبات الناس، وكذلك فإن من خصائص البراجماتية أنها واقعية وعملية (الطرطوط، 2011، 39).

وكان أيضاً جودن ديوي في مصاف أساتذته في تأييد مبدأ النفعية وإدخالها ضمن ركائز البراجماتية، إلا أنه جعل المنفعة تشمل المجتمع ككل بدل أن كانت خاصة بالفرد كما يراها ويليم جيمس، وزاد من توسيعها من جانب آخر وهو جانب حلها لمشاكل المجتمع، أي أن قيمة الأفكار في حلها للمشاكل، وجعل المفتاح الأساسي لذلك هي امتلاك الخبرة، لذلك يقول: "إن مساهماتي في المقالات الأولى لكتاب الفلسفات الحية أبرزت فكرة الإيمان في إمكانات الخبرة باعتبار أنها صميم فلسفتي"، (الأهواني، 1959، 33)، أي أن المنفعة تتضح من نتائج الأفكار والتي هي ثمرات الخبرة.

لذلك يتفق النفعيون أن المنفعة هي غاية الخير والأخلاق، فالصدق أو نفي الكذب ليست هي الغاية؛ بل الغاية ما يترتب عليها من نتائج والتي هي في نهاية الأمر منفعة مادية محسوسة، وحتى تكون كذلك فإنهم يستخدمون التجربة للتحقق من ذلك، حتى أن فلاسفة المنفعة الانجليزية كفلسفة نابغة من إنجلترا وسعوا نطاق المنفعة من المنفعة الفردية إلى المنفعة الجماعية: "فاتخذت كلمة المنفعة عندهم

طابعاً اجتماعياً على اعتبار أن مصلحة كل فرد تتوقف على المصلحة العامة أو مصلحة الجميع" (ليلى، 1991، 272).

(2) انعكاسات النفعية على البحث العلمي التربوي:

انساق تأثير مبدأ النفعية في الفلسفة البراجماتية على البحث العلمي، إذ يرى جون ديوي أن من ضوابط البحث العلمي أن "في أذهاننا أفكار وفروض قد لا يربطها رابط بالمادة المحصلة بالمشاهدة الخارجية تنمو خلالها الأفكار نمواً مستقلاً بها وحدها خاصة في البحث العلمي". (ديوي، 1969) وهي ما يسميها جون ديوي ترجيحات أو رأياً أو تقديرات وبالتالي فالمادة العلمية تتكون من:

1- جانب مادي (قضايا الوجود الخارجي).

2- جانب إجرائي (قضايا خاصة بالمعاني وما بينهما من علاقات) (هاشم، 2018).

وبهذا فإن التصورات الموجودة في الذهن لا بد وأن تتطلق من جانب مادي بحث، فجون ديوي يرى أنه لا بد وأن يكون للبحث العلمي منفعة مادية ملموسة قبل الوصول إلى نتائجه، وبمنهجية إجرائية تربط بين المعاني والعلاقات الموجودة مسبقاً عند الباحث، وهي ما يسميها الخبرة، فإذا كان على الباحث أن ينطلق بهذه الفكرة المادية حين البدء الوصول لحل مشكلة معينة أو تقرير قضية من القضايا التربوية؛ فإنه حينئذ سينطبع في نفسه أن هذا البحث ما لم يحقق له غاية مادية واضحة المنفعة؛ فإنه لن يكون منه تجاهه ذلك الاهتمام البالغ.

إن جون ديوي يعتبر أهم أدوات المنهج هي التجربة وهي عنده "جانب من جوانب المنهج يعبر تعبيراً صريحاً عن كون البحث يستحدث تحولاً وجودياً من حيث مادة الوجود الخارجي التي كانت باعثاً على القيام بذلك البحث" (ديوي، 1969). وهي تلك المشاهدات التجريبية التي تزودنا بالمادة الوحيدة لتتحقق عبر منهجية التجربة حتى يكون البحث منطقياً يقبله العقل، وهي ما آمن به من فلسفة المنهج الأداتي عبر خطواته الثلاث (الملاحظة والفرضية والتجربة) والذي يدعو فيه إلى التخلص من الطابع الميتافيزيقي الكلاسيكي والتحلي بالمنهج العلمي والاستفادة من نتائجه، وعلى هذا الأساس تميزت فلسفته بالطابع العلمي الذي انتهى فيه إلى أن المرء لا يمكنه معالجة عوائق الحياة دون تسخير كل الوسائل العلمية والعملية، وهو بهذه الطريقة المنطقية يقود الباحث عبر منهج التجربة إلى جعل المنفعة هي النتيجة النهائية للبحث، مما يفرس في نفس الباحث ذات الفكرة التي دفعته في عمله للبحث؛ فما لم يكن هناك منفعة مادية من عمل البحث ذاته للباحث؛ فما الداعي لأن يقوم الباحث بكل هذا الجهد؟!

إن التأثير النفعي البراجماتي على البحوث التربوية الإسلامية ساهم في ابتعادها عن احتياجات الواقع الأصيلة، وأصبح الاعتماد في مجالاتها على اتجاهات البحوث في المجتمعات الغربية من ناحية، ومن ناحية أخرى على تقليد من سبق من الباحثين الذين ساروا وفق التقيد الحر في بمنهجيات البحث

الشكلية دون المضمون، وذلك لسيطرة فكر جون ديوي على البحوث المتعلقة بالتنظير التربوي، مما أضعف الإبداع عند العقل التربوي الإسلامي، ووقوعه في البعد عن واقعه، وانعزاله عن سياقه الاجتماعي أثناء النظر للمشكلات التي يتناولها في البحث، فبات من الملاحظ أن بعض الباحثين في الوطن العربي تأثروا بالنزعة النفعية، وأصبحوا يسعون لتحقيق مصالحهم، حتى لو تعارضت تلك المصالح مع مبادئ دينهم، بل باتوا يعانون من أزمة قيم أهم مظاهرها الفردية المتطرفة، والأنانية، وعبادة الذات (السورطي، 2008).

ومن الرؤى الداعمة لفكرة تأثير النفعية البراجماتية على البحث التربوي، أن جون ديوي شدد إلى ضرورة اعتماد المنهج العلمي وتوسيع طرق البحث وتوجيهها نحو دراسة القيم التي جعلها تتغير مع تغير الظروف العلمية، فالحق عنده يصنع كالصحة والغنى والقوة في سياق الخبرة، ويرى أنه لا يوجد حق أو خير إلى الأبد، فالقديم يتغير تاركاً مكانه للجديد، وما كان خيراً بالأمس قد لا يكون كذلك اليوم (قتصوة، 2010).

وبناءً على ذلك فإن ديوي لا يعتقد بوجود قوانين أو مقاييس للقيم بشكل عام - وفي البحث التربوي بشكل خاص - إنما تقاس بمقدار نتائجها من النفع والخير على الفرد أولاً، فالطاعة مثلاً مرغوب فيها بالجيش لكنها لا تصبح قيمة غير مرغوبة أحياناً مع الأولاد والتلاميذ لأنها تساعدهم على التفكير خاصة الطاعة العمياء، فالقيمة عند ديوي ذاتية وليست موضوعية تعود لذات الشخص، (حسين، 1442هـ).

(3) النفعية وتقييمها من منظور التربية الإسلامية:

اعتنى الإسلام بالمنفعة بطريقة تختلف عن الطريقة التي جاءت في الفلسفة البراجماتية، فماداً لو تعارضت منفعة الفرد مع منفعة الجماعة في البراجماتية، وما معيار المنفعة أهو تحقق الهدف المادي فقط، أو قد يكون هناك تحقق آخر؟

إن المنفعة وردت في القرآن في آيات كثيرة كما في قوله تعالى: ﴿ وَاللَّعَنَـمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِرْهَمٌ مِّمَّنْ فَعَمَّ وَفَمَنْعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ (النحل: آية 5)، وغيرها من الآيات، وفي الأحاديث النبوية كما في قوله صلى الله عليه وسلم: "على كل مسلم صدقة، قيل: أرأيت إن لم يجد؟ قال: يعتمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق..." (البخاري، 2004).

ومما يدل على أن المنفعة مقصودة في الإسلام أن من مقاصد الشريعة الإسلامية تحقيق مصالح العباد في العاجل والأجل، ودرء المفساد عنهم (زيدان، 1401). وقسمت المصالح في الإسلام إلى قسمين:

- 1- المصالح المعتبرة من الشارع، وهي التي تتعلق بأمر ضرورية أو حاجية أو تحسينية.
- 2- المصالح المرسله أي المطلقة وهي التي لم يشرع الشارع حكماً لتحقيقها، وليس هناك دليل شرعي على اعتبارها أو إلغائها (الطرطوط، 2011).

ويقول ابن القيم: إن الشريعة مبناهما، وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل، ورحمة، ومصالح كلها، فكل ما خرج من العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة وإن دخلت فيها تأويلاً (ابن القيم، 2006)، وهذا يتفق مع ما ذهب إليه بعض العلماء في العالم الإسلامي أن المصلحة أصل من أصول التشريع، إلى جانب المصادر الأصلية، بل ويقوم عليها في حالة ظهور التعارض بطريق التخصيص والبيان لهما، لا بطريق التنحي عنهما والتعطيل لهما، كما تقدم السنة القرآن بطريق البيان (إبراهيم، 1399). وبهذا نصل إلى أن المنفعة في الإسلام معتبرة وهي ما تُسمى المصلحة والشريعة الإسلامية قائمة عليها، بل هي أصل من أصول الإسلام، إلا أن المنفعة في الإسلام ليست هي المنفعة في الفلسفة البراجماتية، لأن البراجماتية ركزت على ما أسمته الحقيقة وهي الأمر الملموس المشاهد المادي، وأما المنفعة في الإسلام فقد تكون دنيوية مادية، وقد تكون أخروية، وقد تجمع بين الأمرين كما في قوله تعالى: ﴿وَأَتَّبِعْ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (سورة القصص: آية 77).

وعلى هذا فإن الإسلام ينظر إلى المنفعة في البحث العلمي ابتداءً من الهدف الأصلي للبحث العلمي، فإنه يحقق به المصلحة العامة قبل المصلحة الخاصة بالباحث نفسه، بل يحث الإسلام على تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة (رحماني، 2019)، وهذا انطلاقاً من الهدف الأصلي للبحث من ناحية، ومن ناحية أخرى؛ فإن كانت البراجماتية لم تحدد في المنفعة أهي للفرد أو للجماعة، فإن المنفعة الفردية حينها ستتعارض مع منافع الأفراد بعضهم البعض وسيُنظر كل فرد إلى منفعة قبل منفعة غيره، وبهذا تحصل الفوضى وقد يحدث الضرر على المجتمع بسبب تعارض منفعة الأفراد، بل منفعة المجتمعات بعضها مع بعض، حينها من سيمسك بزمام الأمر ليرجع أي المنافع أولى وأكثر نفعاً؟

أما في التربية الإسلامية فإن التشريع وضع قواعد تضبط العلاقة بين المنافع دون تعدد أو انتقاص، كقاعدة: درء المفسد أولى من جلب المنافع، وأيضاً فإن الإسلام يقرر أن هناك بعض الأمور قد يكون فيها ضرر كبير بين الناس وهذا الضرر مما يكره الناس، ولكن قد يكون في هذا الضرر النفع والفائدة والخير، كالجهاد في سبيل الله (الطرطوط، 2011).

ويخلص الباحث إلى أن النفعية في البراجماتية مادية ولل فرد أولاً إذ أنه محور العملية التعليمية، ومصدر أصيل في اشتقاق الأهداف، بينما في التربية الإسلامية فهي تراعي المجتمع والفرد، وتراعي المنفعة المادية، والمنفعة الأخروية، أو كلاهما، وتحت على العناية بالمنفعة الأخروية أكثر من المنفعة المادية الدنيوية، إذ أن الآخرة خير وأبقى، وتضبط كل ذلك بقواعد شرعية ومقاصد فقهية لتحث توازناً في التعامل مع المنفعة بكل صورها.

(4) التسلية التربوي البراجماتي:

المقصود بالتسلية التربوي هو تشيئ التربية بعد تشيئ الإنسان، وهي فكرة فلسفية جاءت نتيجة تراكمات لبعض النظريات الفلسفية جعلت من الطبيعة غير الواعية مركزاً للكون، تنكر على الإنسان أي مركزية له، حيث أنها تراه جزءاً لا يتجزأ من المادة، يرد إليها ويخضع لقوانينها الحالة والكامنة فيها، ومن ثم فهو كائن يتسم بالبساطة البالغة، ويُعرف الإنسان وفق هذه الفكرة في: وظائفه البيولوجية (الهضم - التناسل - اللذة الجنسية)، ودوافعه الغريزية الجنسية (الرغبة في البقاء المادي- القوة والضعف- الرغبة في الثروة- المنفعة المادية)، والمثيرات العصبية المباشرة (البيئـة المادية- غده- جهازه العصبي) (المسيري، 2012)، حتى يتحول الإنسان بهذه الفكرة إلى "شيء" فلا تتجاوز نظرتـه في العلوم -ومنها البحث التربوي- السطح المادي وعالم الأشياء، وذلك لأنه يسير وفق نماذج محددة بسيطة، كما لو أنه يتعامل مع المادة ذاتها.

ومن هذه الفكرة جاءت الفلسفة البراجماتية تحت تأثير المنهج التجريبي مؤكدة على ضرورة وجود منهج جديد يحمل بين جوانحه فكرة المنهجية العلمية المرتبطة بالواقع والتي تحقق المنفعة وتعارض المنهج الأرسطي لما اعتبره منطلقاً يهدف إلى السيطرة العقلية لا الواقعية حيث ذكر ديوي في كتابه تجديد الفلسفة بقوله: ولكن لم يفت بكون مع ذلك أن يحمل على طريقة أرسطو ذاتها، فقد كانت على دقتها ترمي إلى الإقناع، ولكن البرهنة والإقناع كليهما يرميان إلى السيطرة على العقل لا على الطبيعة، فضلاً عن أنهما يفترضان أن أحداً قد حصل من قبل على حقيقة معينة أو اعتقاد خاص وأن المشكلة التي يواجهها لا تخرج عن أن يقنع آخر بهذه الحقيقة أو بذلك الاعتقاد أو يعمل على تعليمها الناس ونشرها فيما بينهم (ديوي، 1974).

وهذا النموذج يركز على مادية كل شيء، ويربط الإنسان بالمادة وقوانينها، فيلغي بذلك الإنسان ويبقي حيز المادة، وبهذه الطريقة يمكن تفسير الإنسان من خلال النماذج الرياضية الموضوعية، ومما ساعد في انتشار هذا النموذج ظهور بعض النظريات السياسية التي تبرر هذا الوضع، واتساع نطاق القطاع الاقتصادي، وشيوع النظريات الأخلاقية النفعية، فهي تجعل هدف الوجود غاية مجردة إنسانية مثل الدولة في المجال السياسي، والقانون العام في المجال العلمي والتحليلي بشكل عام، أو الربح وزيادة الثروة في المجال الاقتصادي، والمنفعة الشخصية في المجال الأخلاقي (المسيري، 2012).

ولئن صرح ديوي بأن بيكن وضع الأساس للمنهج التجريبي الذي سارت عليه العلوم، فإنه قد وضع هذا المنهج التجريبي للسير عليه في العلوم الإنسانية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية (الأهواني، 1959)، وفي محاولة تفسير هيمنة العقل الأداتي على المجتمعات الغربية الحديثة، فإن من أسباب ظهوره هو آليات التبادل المجردة في المجتمع الرأسمالي، وما يهم في السلعة ليس قيمتها المرتبطة بالإنسان وإنما ثمنها المرتبط بالسوق.

ويمكن القول أن العقل الأدا تي يتسم بالسما ت التالية:

- ينظر إلى الواقع منظور التماثل ولا يهتم بالخصوصية، فهو يهمل السما ت التي تميز ظاهرة ما عن أخرى.
- العقل الأدا تي قادر على إدراك الأجزاء فهو يفكك الواقع ولا يستطيع أن يعيده إلا عبر نماذج اختزالية بسيطة.
- ينظر العقل الأدا تي إلى الإنسان على أنه مجرد جزء يشبه الأجزاء المادية، وليس له ما يميزه عن بقية العالم.
- العقل الأدا تي نظر إلى الإنسان من منظور الطبيعة باعتباره شيئاً ثابتاً وكماً واضحاً ووضعاً قائماً لا يحوي أي إمكانيات.
- العقل الأدا تي ينظر إلى الطبيعة والإنسان باعتبارهما مادة استعمالية يمكن توظيفها لخدمة أي هدف.
- الهدف النهائي من الوجود هو الحفاظ على بقاء الذات وهيمنتها وتفوقها.
- يلجأ العقل الأدا تي إلى المقولات الكمية على الواقع وإخضاع جميع الوقائع والظواهر الطبيعية والإنسان للقوانين الشكلية والقواعد القياسية والنماذج الرياضية حتى يمكن التحكم في الواقع (المسيري، 2012).

إن هذه الفكرة الأدا تية التي تبناها ديوي، في تعاملها مع الإنسان تسهم في تسليع البحث التربوي حيث أن النتيجة النهائية لا بد وأن يترتب عليها منفعة مادية سواء كانت المحصلة النهائية لها هي المؤسسة التعليمية أو الباحث نفسه، لأنها تتعامل معه على أنه مادة لا خصوصية له عن غيره، وتقوم بتفكيكه كأنما هو جزء من الطبيعة، وتشبّهه بجزء منها يتسم بالثبات والوضوح دون أي اعتبار لروحه، أو تعقيدات نفسه، أو تأثيرات واقعه، أو رصيده الكامن من المعرفة والخبرات السابقة، وهو بهذه الصورة يمكن أن يستعمل ويوظف لتحقيق الأهداف الربحية، كل ذلك فيما يحقق له بقاء ذاته وهيمنة نجاحه وحصول منفعتة.

(5) انعكاسات التسليع على البحث العلمي التربوي:

إن البراجماتية بفكرة الربط بالواقع الذي تتحقق من وراءه المنفعة تفصل بين عمل الباحث وسيطرة العقل ونفي أي حقيقة سابقة يعتمدها هذا الباحث قبل الشروع في بحثه الذي يتعامل فيه مع إنسان له مشاعره وأحاسيسه وروحه وتأثيرات واقعه المختلفة ورصيده المعرفي السابق وتجاربه في الحياة، إلا أنها مع كل ذلك تصهره في ميدان تجريبي كأنما هو أحد مواد الطبيعة التي يعيش فيها، وإذا ما كان هذا حاله؛ فإنه سيسعى لاهناً وراء فكرة البحث عن المنفعة الخاصة له، وإن المؤسسة التعليمية

التي هو فيها لن تبقيه ما لم يحقق لها منفعة مادية محسوسة من خلال عمله وأبحاثه التي يقوم بها ، وهي ذاتها فكرة التسليع أو التبضيع.

وتتضح انعكاسات التسليع على البحث العلمي من خلال النقاط التالية:

- 1- أصبحت المشاريع البحثية في مؤسسات التعليم تهدف في الأساس إلى تحقيق منفعة مادية محسوسة كتنسيق من التصنيفات العالمية، أو تحقيق أرباح مادية، تعمل على ضمان استمرار مصالحها التي كثيراً ما تكون على حساب المنفعة العامة.
- 2- يقوم العاملون في تلك المؤسسات على السعي لمحاولة توجيه الأبحاث التربوية كمشروعات تحقق استمرارية منافعهم الشخصية المادية غالباً، أو توجيه الأبحاث لموضوعات مستهلكة قصيرة المدى حتى ينتهي المشرف على البحث سريعاً ويحصل على طالب آخر ليشرّف عليها مما يحقق له منفعة مادية خاصة به.
- 3- مع خصخصة التعليم وتحويله إلى برامج علمية مدفوعة بات بعض العاملين في المؤسسات البحثية يسعون لبناء برامج دراسات عليا تربوية لحاجة يراعى فيها تحقيق منفعة الأفراد ابتداءً من حاجة سوق العمل للطلاب، وانتهاءً لما يحصل على الأكاديمي من منفعة مادية جراء التدريس في هذه البرامج، دون الالتفات إلى مهام المؤسسات البحثية الحقيقية كالتفاعل مع المجتمع، والتشارك في بناءه، والتضامن مع مشكلاته وحلها (الشريف، 2018).
- 4- تسعى بعض الدول أحياناً لبناء المشاريع البحثية التي تحقق لها بعض أهدافها المادية الاستراتيجية بالتعاقد مع بعض مراكز البحث العالمية لترسم لهذه المراكز الأطر التي تحقق لهم أكبر هدف متوقع من الأرباح المادية التي تنتج عن مثل هذه الدراسات البحثية التربوية.
- 5- يقع بعض الباحثين في فكرة تسليع البحث التربوي كونهم يحققون به درجة علمية، أو ترقية وظيفية، أو منصب إداري، بغض النظر عن مدى ارتباط البحث بواقع الممارسات التربوية، أو تطويرها، أو تنميتها، أو إحداث فكرة إبداعية جديدة، أو حل لمشكلة تربوية معينة.
- 6- خضوع تحكيم الأبحاث التربوية أحياناً لقيم التجارة، ووضع رسوم للمحكم تختلف بحسب المؤسسة البحثية، وأصبح الخروج عن النمط الذي تتحلّى به -في بعض الحالات- شبيه بالحرام! لأن من شأنه إيقاع الضرر بمصالح القائمين عليها، أو تهديد مكاسبهم (السورطي، 2009).

(6) التسليع وتقييمه من منظور التربية الإسلامية:

إذا كانت فكرة التسليع هي النظر للسلعة باعتبارها شيئاً مستقلاً عن الإنسان، بحيث يتم التحكم من قبل السلعة في المنتج الذي يمثل الإنسان، بدلاً من العكس؛ فكأن السلعة أصبحت ذات قيمة كامنة لها حياتها الخاصة ومسارها الخاص متجاوزة بذلك الإنسان وخلقه وارتباطه بالربانية، فالسلعة كالوثن، مركز الكون الكامن في المادة، والهدف الأوحد من الوجود، فينحرف الإنسان

عن جوهره الإنساني في النظم الإنسانية وعن ذاته الربانية المركبة التي لا يمكن أن تُرد إلى عالم المادة والأشياء في نظام توحيد الخالق (المسيري، 2012).

بينما التربية الإسلامية تنظر إلى السلعة على أنها مجرد شيء يتحكم الإنسان فيه لتحقيق مصلحته الدنيوية التي تعينه على التقرب من الله أكثر في أول الأمر، وتعينه على أن يحيا حياة كريمة بعد ذلك، فالتربية الإسلامية تراعي العناية بالغيبيات أولاً، العناية بالإنسان الذي تكون من جزئين رئيسيين الأول منهما الجسد، والثاني الروح، فهي تراعي الاهتمام بالجزئين فيما يحقق الغرض الأسمى من خلقه وهو العبادة لخالقه الواحد سبحانه، ولكنها لا تُغفل حق الجسد؛ فهي تراعي احتياجاته، ومتطلباته، وغرائزه، وفق نظام محكم سماوي من خالقه الذي يعلم ما الذي يصلح له وما الذي يضره. فهي بالتالي تبقى الإنسان هو المسيطر على السلعة؛ وذلك بتسخيرها لتحقيق مطالبه، لا اندماجها في ذاته، أو انفكاكها عنه، حتى تصبح هي المتسلطة عليه، بل خلقه الله وسخر له الكون بما فيه كما قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرْ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (سورة الجاثية: آية 13). وسَخَّرْ لَكُمْ كُل مَّا فِي السَّمَاوَاتِ مِنْ شَمْسٍ وَقَمَرٍ وَنُجُومٍ، وَكُل مَّا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَشَجَرٍ وَسَفُنٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ لِمَنَافِعِكُمْ، جَمِيعَ هَذِهِ النِّعَمِ مَنَّةٌ مِنَ اللَّهِ وَحَدَهُ أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْكُمْ، فَيَايَاهُ فَاعْبُدُوا، وَلَا تَجْعَلُوا لَهُ شَرِيكًا. (الطبري، 1405هـ).

وإن كان الإسلام حث الإنسان على العناية بما يحقق له غايته الأخروية وهي رضا الله سبحانه ودخول الجنة، إلا أنه لم يهمل الدنيا لأنه سبحانه أمر الإنسان بعمارته، كما قال تعالى: ﴿ وَآلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۗ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُمْ تَتَوَبُّوا إِلَى اللَّهِ إِنَّ رَحْمَةَ رَبِّي قَرِيبٌ مُُّجِيبٌ ﴾ (سورة هود: آية 61). وأنشأه في هذه الأرض، واستخلفه فيها كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ ءَأَمُّوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ ۖ فَالَّذِينَ ءَأَمُّوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾، وفي هذا إشارة واضحة أن الإنسان مستخلف فيما أخلفه الله فيه من الأمور التي تحقق له مصالحه وتعينه على عبودية الله وربوبيته، كما في الآية، أي داوموا على الإيمان بالله ورسوله وأنفقوا في سبيل الله مما جعلكم مستخلفين فيه من أموال المتقدمين وسيخلفكم فيه اللاحقون (الطبري، 1405).

ولئن أشار الباحث إلى أن التربية الإسلامية تنظر للتسلية على أنه خارج عن كيان الإنسان والإنسان هو المتمكن منه، لا العكس؛ فإن هناك زاوية أخرى تختلف فيها التربية الإسلامية عن فكرة التسلية المتعلقة بالمادية الفردية التي تمتلك الإنسان بفرديته بدلاً من أن يملكها، وهي أن الإسلام نظر أيضاً إلى تحقيق المصالح العامة في التسلية قبل العناية بالمصالح الخاصة ووازن بينها، فحرم الاحتكار، وهو أن يُمسك ما اشتراه وقت الغلاء ليبيعه بأكثر مما اشتراه حين تشتد الحاجة، بخلاف إمساك ما

اشتراه وقت الرخص (الشرييني، 1415). وفي الاحتكار تقديم المنفعة الخاصة باحتكار السلعة على المنفعة العامة؛ فكان من حكم التحريم تقديم المصلحة العامة.

وأيضاً بنى الإسلام أنظمة فقهية تتعلق بالسلعة وضبط التعامل معها سواء كان هذا في قضية الانغماس فيها وجعلها هي المسيطرة على الإنسان، أو في تعامل الإنسان معها كشيء منفك عنه؛ فنجد أن الكثير من أبواب كتاب البيوع في كتب الفقه تدور حول هذه الفكرة كالبيع المشتمل على نوع من أنواع الربا، أو بيع العينة، أو بيع الغرر، أو بيع العربون، أو بيع الشيء قبل قبضه، أو بيع النجش، أو بيع الحاضر لباد (الطيار، 2012). وغيرها من الأبواب التي تقنن التعامل مع السلعة بما يحقق للإنسان منفعة الخاصة دون الإضرار بمنافع الآخرين، وهو ما لا يوجد في الفلسفة المادية التي تقدس الفرد وتجعل حصوله على منفعة هي الحق وإن أضرت بالآخرين، كما يقول جيمس (1965): إن الوفاء والجزاء للأفكار التي تجلبها الأرباح هي السبب الوحيد الذي يجعلنا نقتفي أثرها، فأفكارنا ومعتقداتنا تصرف ما دام لا يتحداها شيء كما تصرف أوراق النقد حينما لا يرفعها أحد، والأفكار الصحيحة التي نؤيدها هي التي نقيم عليها الدليل، بينما الأفكار الباطلة على العكس من ذلك وهي ما لا يمكن لنا تحقيقه.

ولتوظيف ذلك في البحث العلمي لابد من النظر فيه من زاوية أن الأصل فيه تحقيق المنفعة العامة قبل الخاصة، والانطلاق من كون الإنسان المسلم يتعبد لله وحده بقضاء وقته في البحث وكذا ذهنه، وإجهااد جسده كل ذلك تعبداً لله أولاً، ثم يأتي بعد ذلك مراعاة المصالح العامة، وتحقيق أهدافه الخاصة مع الموازنة بينها، بحيث لا يطغى بعضها على بعض، وتتحقق من خلاله الرسالة السامية للبحث سواء في العملية البنائية، أو التطويرية، أو حل المشكلات ونحوها، مما يساهم في إحداث منفعة لكل العملية التعليمية بشكل عام، دون أن تسيطر فكرة التسليع على الباحث حتى تصبح هي التي تتحكم فيه لا هو الذي يتحكم فيها، فيوجه البحث العلمي كجزء منفك عنه يستطيع السيطرة عليه لتحقيق أهدافه السامية، لا أن تسوقه فكرة التسليع في البحث العلمي إلى اتجاهاتها التي ضربت بأطنابها في العملية التربوية برمتها -للأسف- في واقعنا اليوم.

الاستخلاصات العامة للدراسة:

في ضوء ما تم عرضه بالإطار النظري، يمكن استخلاص النتائج الآتية:

1. يتفق النفعيون أن المنفعة هي غاية الخير والأخلاق، فالصدق أو نفي الكذب ليست هي الغاية؛ بل الغاية ما يترتب عليها من نتائج والتي هي في نهاية الأمر منفعة مادية محسوسة.
2. بعض الباحثين في الوطن العربي تأثروا بالنزعة النفعية، وأصبحوا يسعون لتحقيق مصالحهم، حتى لو تعارضت تلك المصالح مع مبادئ دينهم.
3. المنفعة في الإسلام قد تكون دنيوية مادية، وقد تكون أخروية، وقد تجمع بين الأمرين بمنهجية قانونية متوازنة تراعي فيها المصلحة العامة والمصلحة الخاصة.
4. من انعكاسات النفعية على البحث العلمي إضعاف الإبداع عند العقل الإسلامي، ووقوعه في البعد عن واقعه، وانعزاله عن سياقه الاجتماعي أثناء النظر للمشكلات التي يتناولها في البحث العلمي.
5. من انعكاسات فكرة التسليع على البحث العلمي أن الإنسان يتحول إلى "شيء" فلا تتجاوز نظريته في العلوم -ومنها البحث التربوي- السطح المادي وعالم الأشياء، وذلك لأنه يسير وفق نماذج محددة بسيطة، كما لو أنه يتعامل مع المادة ذاتها.
6. من مظاهر التسليع على البحث العلمي، توجيه الأبحاث التربوية كمشروعات تحقق استمرارية المنافع الشخصية المادية، وبناء المشاريع البحثية التي تحقق الأهداف المادية الاستراتيجية بالتعاقد مع بعض مراكز البحث العالمية، وعند بعض الباحثين يكون تسليع البحث التربوي ذو أهمية كونهم يحققون به درجة علمية، أو ترقية وظيفية، أو منصب إداري.
7. التربية الإسلامية تبقى الإنسان هو المسيطر على السلعة؛ وذلك بتسخيرها لتحقيق مطالبه، لا اندماجها في ذاته، أو انفكاكها عنه، حتى تصبح هي المتسلطة عليه.

توصيات الدراسة:

1. إعادة النظر في الأنظمة واللوائح التي تخص البحث العلمي مع وضع أثر مبدأ النفعية بعين الاعتبار وكيف يمكن إعادتها دون أن يكون مبدأ النفعية مؤثراً.
2. إعادة النظر في لوائح البحث العلمي التي تخص الباحثين في مختلف المؤسسات البحثية بحيث لا يصبح البحث سلعة مسيطرة على الباحث، بل يكون الباحث هو المسيطر على البحث كسلعة.
3. عقد لقاءات علمية لمناقشة فكرة المنفعة والتسلية على البحث العلمي لرفع مستوى الوعي بذلك رغبة في رفع مستوى البحث العلمي ليحقق أهدافه السامية.
4. إفساح المجال لمزيد من الحرية الأكاديمية للباحثين في اختيار الموضوعات التي لا تسيطر على الباحث بل يسيطر عليها هو وبالتالي يخرج ببحث تحقق فيه المنافع العامة والخاصة.

مراجع الدراسة

القرآن الكريم.

- إبراهيم، أحمد عبدالرحمن (1399هـ). قيم المجتمع هل هي ثابتة أم قابلة للتغيير. بحث من كتاب: *الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم، أبحاث ووقائع اللقاء الرابع لمنظمة الندوة العالمية للشباب الإسلامي، المنعقد في الرياض، 403-404.*
- ابن القيم، عبدالله بن أبي بكر (2006). *إعلام الموقعين عن رب العالمين*. تحقيق: رائد صبر بن أبي علفة، ط1، دار طيبة، الرياض.
- أبو صيحة، انشراح خليل (2015). مستوى اهتمام رؤساء الأقسام الأكاديمية في الجامعات الأردنية في العاصمة عمان بالبحث العلمي من وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس. رسالة ماجستير غير منشورة: جامعة الشرق الأوسط، عمان، الأردن.
- الأهواني، أحمد فؤاد (1959). جون ديوي. دار المعارف، القاهرة.
- بحوت، إدريس (2015). خطر التسليع التربوي أو تبضيع التعليم على التخطيط الاستراتيجي لإصلاح المنظومة التربوية المغربية في أفق 2030، بحث منشور في مجلة علوم التربية، بدون رقم مجلد (62) 94-108.
- البخاري، أبي عبدالله محمد بن إسماعيل (2004). *صحيح البخاري*: اعتنى به وأعدده للنشر: محمد محمد تامر، ج1، حديث رقم: 1445، مؤسسة المختار، القاهرة.
- البيستجي، إياد يوسف (2020) *التربية الإسلامية: أصولها وأساليبها*. بحث منشور في مجلة العلوم التربوية والنفسية، 4(22)، 148-165.
- جيمس، وليم (1965). *البرجماتية*. ترجمة، محمد بن علي العريان، طبعة المركز القومي للترجمة، القاهرة.
- حسين، نسرين خليل (1442هـ). القيم التربوية عند جون ديوي. بحث منشور في مجلة الأستاذ للعلوم الإنسانية والاجتماعية، 60(2)، 401-418.
- حمداوي، حسيبة (2020). *الأخلاق في الفلسفة البرجماتية وليام جيمس أنموذجاً*. مذكرة لنيل درجة الماجستير في الفلسفة، جامعة محمد بوضياف: المسيلة، الجزائر.
- ديفدسون، وليم (د.ت). *النفعيون*. ترجمة: محمد إبراهيم زكي، مكتبة نهضة مصر، القاهرة.
- ديوي، جون (1947). *تجديد الفلسفة*. ترجمة أمين مرسى قنديل، مراجعة زكي نجيب محمود، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
- ديوي، جون (1969). *المنطق نظرية للبحث*. ترجمة: زكي نجيب محمود، دار المعارف، مصر، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة، ط2.

- رحماني، سناء (2019). القاعدة الفقهية "المصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصة" ودورها في مكافحة الفساد، بحث منشور في مجلة الإحياء، 18(22)، 377-402.
- الطرطوط، زكريا حسن سليمان (2011). الفلسفة البراجماتية وموقف الإسلام منها. أطروحة دكتوراة في العقيدة والفلسفة، جامعة العلوم الإسلامية العالمية.
- الزعبي، محمد أحمد، والشرايري، سوزان نبيل (2019). دراسة تحليلية للنظرية التربوية البراجماتية من وجهة نظر إسلامية. بحث منشور في مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات التربوية والنفسية، 10(28).
- زيدان، عبدالكريم (1401). المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية. مؤسسة الرسالة، ط6.
- السورطي، يزيد عيسى (2008). تأثير الفلسفة البراجماتية على التربية العربية: أسبابه، ومصادره، ونتائجه. بحث منشور في دراسات العلوم التربوية، 35(ملحق).
- السورطي، يزيد عيسى (2009). السلطوية في التربية العربية. عالم المعرفة، الكويت، 362.
- الشريبي، محمد بن أحمد الخطيب (1415هـ). مغني المحتاج. جزء 2، ط1؛ دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان.
- الشريف، دعاء حمدي محمود مصطفى (2018). الأبعاد الإنسانية للتربية وأهدافها في مواجهة الظاهرة الاستلابية للعنف الرمزي. بحث منشور في مجلة كلية التربية: جامعة عين شمس، 142(1)، 157-204.
- صليبا، جميل (1982). المعجم الفلسفي. دار الكتاب اللبناني، بيروت-لبنان.
- الطبري، محمد بن جرير (1405هـ). جامع البيان عن تأويل آي القرآن. جزء: 13، دار الفكر، بيروت-لبنان.
- الطيبار، عبدالله محمد؛ والمطلق، عبدالله محمد؛ والموسى، محمد إبراهيم (2012). الفقه الميسر. جزء: 6، مدار الوطن للنشر، الرياض.
- عبدالحميد، محمد (2006). الفلسفة والنزعة الإنسانية (الفكر البراجماتي نموذجاً). ط1، دار الوفاء للطباعة والنشر، الإسكندرية.
- عبيدات، ذوقات؛ عبدالحق، كايد (2001). البحث العلمي: مفهومه وأدواته وأساليبه. ط7. دار الفكر، عمان.
- عدس، عبدالرحمن (2003). البحث العلمي (مفهومه/ أدواته/ أساليبه). دار أسامة للنشر والتوزيع.
- العنزي، مسعود عيد (2011). معوقات البحث العلمي في الجامعات السعودية الناشئة. بحث منشور في دراسات العلوم التربوية، 1839، 37-1852.

- الفراجي، ظاهر عبد الحميد حسين (2021). مدى تضمين محتوى كتاب التربية الإسلامية للصف الثالث المتوسط لمعايير الجودة في العراق لعام 2019-2020. بحث منشور في مجلة دراسات تربوية، العدد (53).
- قنصوة، صلاح (2010). نظرية القيم في الفكر المعاصر. دار التنوير للطباعة، بيروت.
- كتلو، خالد سليمان محمد، وبحيص، جمال محمد حسن (2019). موقفات البحث التربوي في جامعات جنوب الضفة الغربية كما يقدرها أعضاء هيئة التدريس الجامعي. بحث منشور في مجلة اتحاد الجامعات العربية، (1)39، 45-61.
- لا لاند، أندريه (2001). موسوعة لا لاند الفلسفية. ترجمة: خليل أحمد خليل، منشورات أحمد عويدات، بيروت-لبنان.
- ليلى، وليام (1991). المدخل إلى علم الأخلاق. ترجمة علي عبد المعطي محمد، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.
- محمود، زكي نجيب (2020). حياة الفكر في العالم الجديد. مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة.
- المسيري، عبد الوهاب (2012). رحابة الإنسانية والإيمان دراسة في أعمال مفكرين علمانيين وإسلاميين من الشرق والغرب. دار الشروق القاهرة.
- المطري، نايف عبدالرازق (1433هـ). الفردية في الفلسفة البرجماتية دراسة تحليلية ناقدة من وجهة نظر التربية الإسلامية. بحث مكمل لنيل درجة الماجستير بقسم التربية الإسلامية والمقارنة، جامعة أم القرى.
- نصار، علي (2015). تفعيل مقومات البحث التربوي على ضوء متطلبات مجتمع المعرفة - رؤية مستقبلية. المجلة العربية لضمان جودة التعليم العالي، (20)8، 91-126.
- هاشم، رافد قاسم (2018). جون ديوي، والمنهج البرغماتي. بحث منشور في مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية / جامعة بابل، (39)، 1409-1428.
- وسب، هـ. ب. فان (1963). الحكماء السبعة. ترجمة يوسف الخال وأنيس فاخوري، دار مجلة الشعر المكتبة العصري، بيروت.